

﴿ المقدمة ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

الحمد لله الذي خلقنا فأحسن خلقنا، وقدّر لنا فأحكم تقديره، ودبّر لنا فألطف تدبيره، وله الشكر على ما هدانا للتي هي أقوم باتّباع كتابه واقتفاء أوليائه، الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين، والذين جعلهم الله عدل كتابه، لا يفترون عنه قدر شعرة، عصمهم لذلك من الأخطاء والضلالات، وطهرهم من الرجس تطهيراً، وقدّر نور هدايته الذي يهتدي به من في السماوات ومن في الأرض في بيوتهم، وأذن أن ترفع تلك البيوت ويذكر فيها اسمه ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^(١)، قد منّ الله على عباده بتلك النعمة نعمة لا تعدّها آية نعمة أخرى، وقد أشار بذلك فقال عزّ اسمه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(٢).

(١) النور: ٣٧/٢٤.

(٢) آل عمران: ١٦٤/٣.

وذكر من شؤون فضلهم أن لهم الولاية على الناس، فقال: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَٰحِعُونَ»^(١)، وأكد ذلك حيناً بعد آخر فقال: «اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ»^(٢)، وذكر «وَأَزْكُوا مَعَ الرَّكْعِينَ»^(٣)، وفرض أن «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ»^(٤)، وعاتب على من خالف ذلك، فقال: «مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ»^(٥)، وأخيراً لم يأذن لهم أن يتخلفوا عنه إلا بإذنه، فقال: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ»^(٦)، ومع الاستئذان بعد، فخير الرسول ﷺ يأذن لمن يشاء ويحبس ممن يشاء، وأكد تلك الهداية، ومنع أن يختاروا غيرها مقابلة لها، فقال جل اسمه: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ»^(٧).

وهؤلاء الأخيار الأبرار بمنزلة الرسول ﷺ في كل أمر إلا أنه لا يوحى إليهم، بل ينشرون في الناس ما عندهم من ودائع الرسول، يحكمون بحكمه

(١) المائدة: ٥٥/٥.

(٢) التوبة: ١١٩/٩.

(٣) البقرة: ٤٣/٢.

(٤) النساء: ٥٨/٤.

(٥) التوبة: ١١٩/٩.

(٦) النور: ٦١/٢٤.

(٧) الأحزاب: ٣٥/٣٣.

ويحفظون شريعته وأحكامه، فهم عيبة علمه، وموضع سرّه، وتنبّه لذلك فرقة من المسلمين واستقاموا في ذلك يرأسهم في الزمان الأوّل سلمان وأبو ذرّ ومقداد وعمّار ومن حذا حذوهم، ويتبعهم في كلّ زمان، وفي عهد كلّ إمام من الأبرار يتبعهم جمّ من الأخيار، وأولئك الأئمة الأبرار قد أعدّهم الله للأجيال القادمة.

ولما يعرض لهم الزمان من المشاكل والأحداث التي لم تكن من قبل، فهؤلاء الأفاضل بأيديهم مفاتيح تلك الأغلاق، وعندهم مصابيح تلك الظلمات، وقاموا عليهم بحلّ تلك المشاكل، وقد تنبّه لذلك حتّى من لا يعتقد بإمامتهم، فاعترفوا به، وطأطأوا لهم رؤوسهم، وأقرّوا لهم بالفضل، وبهرهم ما رأوا من قبل ذلك من عظم سلسلة نسبهم وجلالة أقدارهم ترى الجاحظ عمرو بن بحر كبير أئمة الأدب، المتوفّي سنة ٢٥٥ - المعاصر لهؤلاء الأفاضل - يتشرّق بفضلهم وفضيلتهم، يقول في الحادي عشر منهم، الحسن بن عليّ العسكريّ صلوات الله وسلامه عليه: ومن الذي يعدّ من قريش أو من غيرهم ما يعدّه الطالبيون عشرة في نسق كلّ واحد منهم عالم زاهد ناسك شجاع جواد طاهر زاك، فمنهم خلفاء، ومنهم مرشحون ابن ابن ابن ابن، هكذا إلى عشرة، وهم الحسن بن عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ عليه السلام.

وهذا لم يتفق لبيت من بيوت العرب، ولا من بيوت العجم كما أثبتته ابن أبي الحديد في شرحه على النهج (٢٧٨/١٥) ننظر إلى عظمة النسب بقوله: وهذا لم يتفق لبيت من بيوت العرب، ولا من بيوت العجم، وننظر إلى فضائلهم: كلّ واحد منهم عالم زاهد ناسك شجاع جواد طاهر زاك، يقول الجاحظ ذلك مع نصبه.

وانظر إلى ناصب آخر أحمد بن عبيد الله بن خاقان، يقول: لم أر، ولم أسمع بسامراء مثل الحسن بن علي العسكري في وقاره وعفاهه وفطنته وعظم نفسه عند السلطان، وعند عشيرته حتى كانوا يقدمونه على الأمراء والوزراء والكتّاب (هذا والقوم في كبر السنّ ويكون عليه السلام في ريعان شبابه)، قال: كنت يوماً واقفاً على رأس أبي، إذ جاء الحاجب وقال: ابن الرضا عند الباب، فرفع أبي عقيرته، وقال: اءذنوا له، فلما قدم قام إليه أبي واستقبله بأن مشى إليه، ولم يسبق له ذلك لأحد حتى الوزراء والأمراء والولادة، فلما قرب منه اعتنقه وقبل وجهه وجبهته، وأخذ بيده وأجلسه مجلس نفسه وجلس قبال وجهه يكلمه، وما زال يقول له: بأبي أنت وأمي!

فسألت أبي ليلة ذلك اليوم: من هذا الرجل الذي فعلت به من الإجلال والإكرام ما فعلت، وفديته بأبيك وأمك مراراً؟!

قال: ابن الرضا، إمام الرضا، وسكت، وبعد لحظات عقت ذلك وسألت عن ذلك الفتى؟

فقال: بني! لو خرج الخلافة من أيدي العباسيين ما كان في بني هاشم أليق منه لتصدّي ذلك، لفضله وصيانة نفسه وزهده وعبادته ومحاسن أخلاقه، ولو رأيت أباه لرأيت امرئاً كريماً عاقلاً يعمل الصالحات، وله فضل.

واشتعل من تلكم الكلمات في جوفي غيظاً^(١).

وكذلك لما روى أبو الصلت الهروي رواية عن علي بن موسى، عن أبيه موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن

(١) تلخيص من الحديث المفصل الذي يأتي في ج ٢، ح ٤٦٢.

الحسين، عن أبيه الحسين بن عليّ، عن أبيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام وكان هناك ابن أحمد بن حنبل فبهره ذلك السند، فقال: ما هذا؟! هذا سعوط المجانين، لو تداووا به المجنون لأفاق.

هذا، وقد منّ الله على هؤلاء الأئمة الكرام بإمداد غيبيّ وعظّمهم حتّى في أنفس المعاندين كما رأيت، فلم يدع من الناس عالماً ولا جاهلاً ولا دنيئاً ولا فاضلاً ولا مؤمناً صالحاً ولا فاجراً طالحاً ولا جباراً عنيداً ولا شيطاناً مريداً إلا أقرّ بفضلهم، لأنّه سبحانه عزّ فهم جلاله أمرهم، وعظم خطرهم، وكبر شأنهم، وتما نورهم، وصدق مقاعدهم، بلّه مقاومهم.

ألم تر كيف ليّن قلب فرعون وامرأته لموسى عليه السلام لما أبصرت به امرأة فرعون، قالت: «قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلكَ»^(١)، وما ذاك إلا لما ألقى عليه محبّة منه جلّ جلاله، وكذلك الأمر في الإمام الحسن بن عليّ العسكري عليه السلام لما خرج من سجن المعتمد رأوا أن كتب بخطّه الشريف: «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون»^(٢).

قال المفيد رحمته الله: ضيقوا على الإمام العسكري عليه السلام في السجن وعهدوا إلى أشدّ أعدائه أن يعامل معه بأشدّ ما يكون وأفظعه، فلمّا رأى الرجل الإمام عليه السلام وصاحبه أيّاماً رآه يمدح الإمام ويفضّله على غيره أكثر من سواه، ولا يذهب عليك أنّ ذلك كلّه في حدّاته سنّه الشريف، وفي ربيعان شبابه، وكان الإمام وكذلك أبوه الشريف عليه السلام من قبل تحت منظار الخليفة لا يهتدى الشيعة إليه

(١) القصص: ٢٨/٨.

(٢) التوبة: ٣٢/٩.

سبيلاً إلا فيما يروح إلى دار الخلافة في كل أسبوع مرتين: يوم الاثنين ويوم الخميس، ولقد ألقى عليهم الضيق إلى حدّ وقع عليه إلى بعض معتمديه حينما خرج إلى دار الخلافة لا يسلم على أحد، ولا يشير إليه بيده ولا يومي، وهل الإمام في تلك المحنة القارصة ألقى بيديه، وجلس في زاوية بيته يتجرّع الغصص، ويدع الناس وأنفسهم، كلاً وحاشا، بل رابط مع الثقات من شيعته، وجعل يعرفهم لعرض الناس كي يراجعوهم ويأخذوا عنهم، ما ألقى إليهم من معالم دينهم ويسلمون إليهم الحقوق الواجبة عليهم حتى يصل إليه عليه السلام، ينعش به مساكين الشيعة، فانتشر له كلماته حتى في البلاد النائية مثل نيشابور وبيهق والكشّ وسمرقند، وكان يطالع ما كتبوا عنه وعن آباءه عليهم السلام في عمل اليوم والليلة، ويقرأ فيه ورقاً ورقاً، ثم يؤيد محتواه، وحصل من ذلك وأشباهه ثورة علمية، وقام رجال لذلك وظفروا بحصيلة علمية لا يستهان بها.

قالوا: كان عند محمد بن علي بن حمزة من أصحاب الإمام العسكري عليه السلام كتب كثيرة، قال العياشي: لم يكن آثار من الأئمة الأطهار عليهم السلام في مواضيع مختلفة إلا كانت عنده، وبذلك اعتمد واستعدّ الثقات كي يبذلوا جهدهم في حفظ تلك الموارد وصيانتها عن الضياع، ولذلك قام كبرائهم في الغيبة الصغرى وبعدها بجمع تلك الآثار في كتب قيمة كالكليني والصدوق وشيخ الطائفة قدس الله أسرارهم، وجزاهم بما عملوا خير جزاء المحسنين، فقد ساس ذلك الإمام الهمام خلائق عصره في تلك الآونة الشديدة وأقام البلاد وهيئاً النفوس للغيبة الصغرى والكبرى بما أنسوا في عهده وعهد أبيه من قلة المواجهة مع إمام زمانهم ومارسوا قوارس ذلك ومع ذلك رووهم من معارفهم بكأسها الأوفى، فقام عليه السلام بما عهد الله

عنده في ذلك المقطع بأن يبصّروا شيعتهم كيف يتّقون بأن لا يسلمّ عليه أحد ولا يشير إليه، ويبصروهم معالم دينهم بالأخذ من الثقات، ويؤدّون واجبهم بإرسال الحقوق بأية وسيلة إليهم حتّى أنّ بعضهم اضطرّ أن يجعل تلکم الحقوق في ظروف السمن، واشتهر لذلك بالسمن، وقامت الشيعة بذلك أحسن القيام، وخرج منهم بقمّ ونيشابور وسواهما الأعلام الجهابذة، وحسبك ما ترى في الكتب الأربعة من المحمّدين الثلاثة في القرن الرابع والخامس، وكان بقاء تلك الثروة الهائلة بمحاسن تدابير هؤلاء الكرام البررة في ذلك الضنك والضييق ضاعف الله أجرهم وجعلنا من كلّ سوء فداهم، وأخذ بأيدينا إلى الإهتداء بهديهم، وسلوك سبيلهم، وأخذ بأقدامنا وأقلامنا إلى نشر معارفهم، وبث آثارهم كي يخرج الناس من ظلمات الأهواء والآراء والوهميّات إلى ضوء كلامهم الثمين القيّم.

وكأني بالإمام العسكريّ روعي فداه! يهتف الناس ويقول: هاءوم اقرأوا كتابيه، الذي بذل جمّ من الفضلاء جهودهم ووصلوا ليلهم بنهارهم ليضيؤوا للناس بجمع هذا الكتاب وجعله في متناول أيديهم، عصري وملزوماته ومستلزماته، ويقفوا على أصحابي وعدّتهم وعدّتهم، وليتبصّروا ما يلزمهم من الوظائف، وما يكلفهم إشاعة الدين، وإضاءة أهله زمانهم، فلا يقصّروا وإن قاسوا الشدائد وذاقوا المرير، فإنّ الله يعضدهم ويقوّيهم وينصرهم على الأعداء، وكفى بالله حسيباً، وكفى بالله نصيراً، الله مولاكم وهو خير الناصرين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

كتبه المسيء الراجي لشفاةة هؤلاء الأختيار الأبرار الأئمة الأظهار وجدّهم
الأكبر رسول الله صلّى الله عليه وعليهم، وأمّهم سيّدة نساء العالمين، حقّق الله
رجائي ورجاء المسلمين من إخواني، والسلام.

١١ ذي القعدة يوم ميلاد ثامن الحجج عليّ بن موسى الرضا عليه السلام سنة ١٤٢٦

«حرّره أبو القاسم الخزعلي»